خمسة في سيارة

[السفر مدرسة الحياة ، والارض كتاب لا يقرأ منهُ المقيمُ في بلد واحد الا صفحةً واحدة . لان الارتحال يصقل الطبع ويتلف الملل ويهذب النفس ويزيد الخيال تقيد الحقيقة ويطلق الفكر من اغلال التحزب الاجتماعي والتاريخي ويوسع افق النظر الى الحياة والعمران . فاذا كان المسافر ذا نظر نقاد راوياً لحوادث التاريخ وعبره خبيراً بطبائع الشعوب وآدابها ملمًّا باصول العمران ونظمه ، وكان ذا قلم بليغ رشيق العبارة سلس الاسلوب جاءت كتاباتهُ عن اسفاره من امتع الكتابات وانفعها وافيدها . وقد اجتمعت هذه الصفات الممتازة لصديقنا الاستاذ سامي الجريديني ويسرّنا انهُ قد عزم على ان يتحف قراء المقتطف بطائفة من اخبار اسفاره جرى في كتابتها على اسلوب جديد في الادب العربي . وهذه مقالتهُ الاولى]

١

كانوا خمسة في سيارة ، ثلاثة رجال وامرأتان

اما راوي الحكاية فمصريٌ غادر بلدهُ الى فرنسا بغية التروح عن النفس وحبًّا في التعرف بكل ما يجدهُ في المدنية الاوربية من مليح وقبيح . واما الاربعة الآخرون فانكليزي وزوجتهُ وفرنساوي وزوجتهُ

وليس ما يرويه صاحبنا المصري الآن من الحكاية الحالية بل وقائع حدثت [illegible]

فما الذي جمع هؤلاء الخمسة في سيارة واحدة [illegible] فيما يلي على هذه الرحلة؟ الى القارئ الجواب :

كان صاحبنا المصري وحيداً فريداً في [illegible] عاصمة ماكان مملكة الاولياء العهد ابان المملكة الفيرلية . وليست هذه [illegible] بل هي [illegible] تمنع عنها الهواء في الصيف فيكاد النفس يختنق [illegible] من ناحية الى اخرى ولكنها واقعة في قلب جبال [illegible] يتخذها السياح مقرًّا ينتشرون منهُ الى ما قرب او بعد من هذه الجبال

وكان ينزل في فندق فخم وهو كان احسن ما يُرى في جرينوبل مجهزاً باحدث ما

اوجده طلاب الراحة العصرية من جهاز ولكنه واسع الاطراف مترامي الابعاد قليل السكان فيشعر النازل فيه انه في غابة واسعة مكسوة باحسن الاثاث ويحل فيها الندل والخدم محل السباع او الضباع

فكان حقاً عليه ان يسعى الى التعرف بمن يفرج عنه كربة الوحدة والانفراد

وكان يجتمع في مساء كل يوم في بهو هذا الفندق نفر من سكان البلدة — ولعلهم من اعيانها — يرقصون، ولم يكن صاحبنا من هواة الرقص فانه يجهل مبادئه العصرية فكان الامر اكبر عائق في سبيل تعرفه الى الناس. فكان يحرق الارم غيظاً ويهم ان يذهب الى هذه المدارس المعدة للرقص المتفشية في كل انحاء العالم ولكنه كان خجولا كثير الاعتداد بنفسه فلا هو يرغب في العودة الى التلمذة وتلقي الدروس — حتى دروس الرقص لشدة ما لاقى من هول الامتحان في شتى المدارس التي دخلها . ولا هو يعترف بسهولة بجهله الرقص اذا ما ضمه ناد من اندية فكان يحتال الحيلة بعد الاخرى حتى لا يدرك القوم ضعفه فيدعي مرة وجع رجله واخرى صداعاً في رأسه او يختبئ ناحية يتحدث الى عجوز تحملق في الراقصين وتؤثر النظر الى ما بيد اليها ذكرى شبابها على التحدث الى رجل لا يفهمها

وساقه طالعه مساء يوم الى الجلوس بعيد العشاء الى مائدة منفرداً وحدته نفسه فطلب كأساً من الويسكي فتلثم الخادم واعتذر قائلاً ان الفندق خلو هذه الليلة من الويسكي الا زجاجة واحدة احتكرها هذا السيد الانكليزي الجالس هنا امر بها تقيد الى حسابه . واشار الى الرجل . وكان الانكليزي ادرك مغزى الكلام فنهض من مقعده [illegible] برسل يحب الويسكي حبه له فقعد الى جانبه راخذا يتجاذبان شتى الاحاديث [illegible] عليها زوج الانكليزي سيدة رشيقة القوام بضة اللون شقراء ما بقي فيها من شعرة فضة الزوج صاحبنا البصري الى السيدة . فلا تسل عن جرعة حالما ابتدأت موسيقى الرقص بعد راحة وسكون فكان يتظاهر بالاهتمام بحديث [illegible] ويتشاغل بالكلام حولا انظار [illegible] الرقص الى موضوع كلامه حيلة حتى لا يضطر السيدة الى الرقص معه — عادة ان لم يدعها اخلّ بواجب اللياقة وان دعاها فضح نفسه . وكان البرد قطنت الى الامر فاحببت ان ازيد في عذابه فاجأته سائلا لماذا لا يرقص . وبهلا يحب الرقص بغت وأخذ على غرة وقال ان رجلي ألماً شديداً استعصى عليه رقد امرب

الطبيب ألاّ أجهدها فسكتت السيدة تأدباً وحسن تربية فانها لم تشاهد في مشيته عرجاً ولم تلمح في احدى رجليه عوجاً

وكان الطقس جميلاً والجو صافياً مما يبشر بصحو وشمس مشرقة في اليوم التالي فقال الانكليزي انا ذاهبون غداً في سيارة من سيارات السياح التابعة لشركة السكة الحديدية الفرنسية المدعوة P.L.M. لمشاهدة دير الشارتروز في قلب جبال الالب معروفة بهذا الاسم فهل تعرف المكان؟ قال صاحبنا اني اعرف المكان وقد زرته في مثل هذه الايام من السنة الماضية ولكني اذهب معكما فالبقعة جميلة والنزهة نادرة المثال لا تمل فاتفق الثلاثة على أن يصبحوا الى مكتب الشركة في الساعة الثامنة من الغد. وكان الغد والتي الثلاثة امام السيارة وهي كبيرة ضخمة تسع ثمانية عشر راكباً اعدتها شركة السكة الحديد بين باريز وليون والبحر المتوسط سبباً تزيده الى اعمال سككها الحديدية. فركب الثلاثة كلٌّ في مكان أُعد لهُ وسارت السيارة بسياحها تخترق الجبال صعوداً في طرق مهدت كأنها طريق سلطاني معبد منذ سنين

وكان مقعد السائح المصري الى جانب سيدة تصحب زوجها ومقعد الانكليزي وزوجته في الامام على غير بعد منهُ. وهبت الريح فاطارت قبعتهُ عن رأسه وهو لا يعهد لهُ بليس هذه القبعات فلم يكن ليحكم وضعها على رأسه فصاح واشار الى السايق بالوقوف ولكن الرجل جاره كان في مقعد على مقربة من الباب فاسرع في النزول وجاء لهُ بقبعته فاخذها صاحبنا شاكراً بعقد الخجل لسانهُ. وكانت الحادثة سبباً في الاخذ باسباب الحديث فعرف منهُ انهُ يقطن الفندق نفسهُ في جرينوبل وانهُ رغم كونهِ فرنساويًّا فهذه اول زياراته لدير الشارتروز وانه كان في الحديقة الخاصة بالفندق يوم وصل صاحبنا من بلاد الله قالت وانا شرقية سلام. انني مولودة في باريز ما كنتي من ابوين لبنانيين فجمعتهما رابطة الشرق وقارنها ولكن غصة على ذلك الفراق بين فضحك الزوج وقال يا لهذه الدنيا ما اضيقها على رحبها فقد جمعت هذه السيارة على ما يظن نحواً من عشرة اجناس من اقاصي الارض وليس كذلك انما قد تجمع كل العالم في ضمن حدودها

ووقفت السيارة في خلال محطات الرحلة فعرّف صاحبنا صديقيهِ الجديدين بصديقيهِ الانكليزيين وجلسوا وتهم الافرنسية يتبادلون الكلام. وما كاد يستتب بهم السفر في غاية رحلتهم حتى اصبحوا كأنهم اخوان الصفا من عهد قديم

ذلك ان هؤلاء الغريبين أدباً وحسن سلوك في المعاشرة يحبّب اليك الجلوس اليهم فتنسى انك غريب عنهم كل هذا الى تحفظ في الحديث فلا يناقشونك في شيء من امور الدين او شؤون السياسة بل يصرفون الكلام كله الى سوى ذلك مما يتعلق بالفنون والعادات والاجتماع لعلمهم ان الدين والسياسة امران يختلف فيهما الناس فلا تصح مناقشتهما فيهما كلا يولد اختلاف النظر والميل نفوراً لا يحمد في رحلة غايتها الترويح عن النفس والتمتع بالطبيعة وعمل الانسان فيها

والطريق الى دير الشارتروز يأخذ على الانسان حواسه وشعوره ويكاد يذهب بعقله . فانك لتخترق الجبال واحداً بعد الآخر صعوداً فتشرف على اودية ملأى بالحراج والغابات وتنظر الى فوق فاذا الشلالات تتحدر وتنساب كالحيات البيضاء . هنا صخر قائم بنفسه اجرد أملس تظنهُ جبلاً قد انتقدّ عما سواهُ من الجبال . وهنا نهر يجري يطفو بسمك خريراً فيحبّب اليك التماس ثم ينحدر فجأة شلالاً يروع الناظرين . وهنا غابة حلّقت اشجارها وناطحت السحاب صُفّت واحدة اثر اخرى كأنها بنيان مرصوص والشمس تلوح في كبد السماء ولا تصل اليك لما يحجبها عنك من الحراج والمطر يهطل فلا يبلّلك الاّ بعد ان يملأ الاشجار ماء

هكذا حتى قُدّر فبلغ المطيُّ بنا الدير . وما ادراك ما هذا الدير

مكنة جمت مئات الغرف والدهاليز في مئات من الارض عظيم . تدخلهُ من باب موصد دون الذين لا يدفعون رسم الدخول وتمرّ في ميدان مبلط الى باب آخر هو مفتاح الدير فيطلعك رجل من رجال الدير شاباً يقابل الفراغ فيفتح ويأمر الداخلين بالالتفاف حوله والمرور حيث يشير عليهم ثم يأخذ بسرد تاريخ الدير منذ نشأته الاولى الى حين ضربت الحكومة الفرنساوية سنة ١٩٠٤ و ١٩٠٢ كل فيه من رهبان واحتلتهُ باملاكها وجعلتهُ خالياً خاوياً اثراً حجرياً بعد مغاور عادت مساوئ احياء

وحكاية هذا الدير غريبة — والهدة على ذوي الشارتروز الضخمين — فانهُ حدث سنة ١٠٨٤ ان ستة من الذين انهُمكوا على كتب الكنيسة في جرينوبل مطران ظهور بالتقوى ولهُ تلامذة معروفون عديدون فرأى في الليلة كما يرى النائم نوراً يحيط به سبعة نجوم قد هبط اليه وسجد له وخرّ يلتمس منه أن يرفع عنه ذنوبه . فسمّى الشارتروز . فلم يعبأ بالامر وقال اضغاث احلام

وبينما هو في مجلسه اذ قال قائل ان القديس فلان (ويذكر الاتقياء نسيان اسم هذا القديس واظنهُ برينو) جاءك من بلد بعيد زائراً فامر به يدخل عليه. فجلس التلميذ بين يديه واستأذنهُ بان يتقدم لهُ سبعة من اخوانه قدموا معهُ فلما تكامل العدد قال القس الزعيم انهُ جاء يعرض على معلمه ومهذبه امراً وهو ان النعمة قد هبطت عليه فعزم على ان يؤلف رهبنة يكون من نظامها كيت وكيت وانهُ يطلب بركة المطران وصلواته

وذكر المطران رؤياهُ وقال هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربّي حقًّا وامرهم ان يجعلوا مقر رهبتهم في الموضع من جبل الشارتروز حيث ألم في الرؤيا

فانقاد القس للامر وجاء الى ذلك الموقع من الجبل واسس الرهبنة هناك. وانك لترى شعارها حتى الآن سبعة نجوم وقمر

على ان الوحي على قول الكفار لم يحكم الاصابة. فان الدير الذي قام على موقع رؤيا المطران من الجبل لم يلبث في شتاء سنة من السنين ان جُعل عاليه سافله من صخرة كانها جبل قدّت من جبل آخر تدحرجت عليه وطمست مساله ولم ينج من رهبانه الا القليلون. وهؤلاء جاءوا وبنوا هذا الدير الحالي في مرتفع آخر يبعد كثيراً عن موقع الرؤيا

ولكنَّ المؤمنين يردون قول الكافرين ويقولون ما اخطأ الوحي ولا ضلّ السبيل ولكن المطران خانتهُ الذاكرة فانه على موقع الجبل كما أوحي اليه

[illegible]

ذي الشعرين. اما السيدة [illegible] فانها كانت [illegible] الصليب او علقت فيه صورة بقدرها الا رسمت علامة الصليب بيدها على قدرها. اما الانكليزية فكانت تعجب بكل ما ترى. [illegible] يهتدي اليه. اما الانكليزي فكان يسرع في الخطى يتقلب الحجر عائقاً على الدرب. [illegible] لمنهم التدخين في الغرف لحرم من لذة [illegible] وكان الافرنسي [illegible] عما في البناء من هندسة متقنة نادرة المثال. وما على انواع الزجاج من فن التصوير

فلما انقضى العجب الزيارة واخذ العجائب الخمسة مقامهم في مكان بارز من الدير فوق صخرة تظللها الاشجار فمكثت عقدة لسان المصور فقال

ان آية هذا الدير النظام التي كانت عليه رهبنة الشارتروز. فهذه رهبنة تنتمي الى

دين لا يفرق بين سيد وخادم ولا يخير الواحد عن الآخر الاَّ بالايمان . فما بالهم جعلوا من الرهبان فرقاً — هذه فرقة تخدم وتلك فرقة لا يجوز لها اطلاق الشارب بل عليها الاكتفاء باطلاق اللحية وتلك تطلق الشارب واللحية . وهؤلاء الذين يمتنون في الدير وتكثر مآية منهم او اكثر قلنسوة واحدة عليها صليب صغير . اما الرئيس او الجيراك فله في قلنسوته صليب خاص به . ولذا ترى صلبان الرؤساء اكثر من صلبان الرهبان على ما ترى هؤلاء تزيد على سوق اركلك بكثير

قال الانكليزي . ذلك النظام . انزع الرئيس والمرؤوس من الدنيا ترَ الفوضى والخراب الخ الخ

المصري — انا أيس هناك مساواة حتى تحت الارض

الانكليزي — المساواة ليست في الطبيعة ويجب ألاَّ تكون في البشر . ثم وضع غليونه في فمه واشعله وجلس جلسة فهم الباقون منها انهُ قد شبع من الكلام

قال المصري : اني لا ازال اعجب لهؤلاء الرهبان كيف كانوا يطيقون الحياة في هذا الدير . أنظرتم حجراتهم ؟ ان الواحدة منها لا تزيد على ذراعين في ذراع . فراشه قليل من القش في مزود كمزود البقر لا يرى النور الاَّ من كوة تقاس بالاصبع فاذا صحا من نومه فالى الركوع والعبادة

واغرب الغرائب ان هؤلاء الرهبان كانوا كلهم قوماً مهذبين مثقفين فان الرهبنة لم تقبل في عضويتها الاَّ البارعين في اللاتينية ولم يكن ليسمح بلغة اخرى داخل هذا الدير

قالت السيدة الانكليزية : هو الايمان يفعل العجائب فاذا كانت حبة خردل منهُ تنقل الجبل من موضعه فما بالك بما يفعله ايمان هؤلاء

الفرنساوي — انهم كانوا يتناولون من هذه الدنيا بطيب خاطر الشارتروز فانه قنعوا صنعتهُ واحتكروا سرهُ فتلذذوا بطعمه واثروا من بيعه

فغضبت زوجه وقالت تالله تبتاً تأخذ الامور هازلاً اني لا احب هذا الهزل منك

فرفع كتفيه وضحك وسكت

وسرنا في طريق السيارة فهمَّ بعضهم بالرجوع الى الدير بل في غير الطريق التي اتوا منهُ . ولكنهُ لا يتنصل عن الطريق الاول وجهه وجملاً

فلما بلغنا فندقهم وتناولوا طعام الغداء تصرف كل الى مخدعه على ان يعودوا فينظموا رحلتهم الثانية

سامي الجريديني